الكتاب التاسع عشر

أبو الأعلى المودودي وكتابه: المصطلحات الأربعة

تحليل وعرض: أ.د السيد أحمد فرج

ولد الإمام أبو الأعلى المودودي في سنة ١٣٢١هـ / ١٩٠٣م في مدينة (أورانج آباد) من ولاية حيدر آباد الدكن الإسلامية في بيت معروف بالعلم والورع، يرجع نسبه إلى قطب الدين مودود، من (هرات) بأفغانستان القريبة من حدود إيران، وكان أحد فروع هذه الأسرة المودودية قد هاجر إلى الهند في القرن السادس الهجري، وكان شيخ هذا الفرع يسمى أبو الأعلى المودودي، وهو الاسم نفسه الذي سمى به السيد أحمد حسن ابنه المترجم له باسم جده: أبو الأعلى المودودي.

كان والد الإمام المودودي السيد أحمد حسن ذا ثقافة إنجليزية، لأنه درس في مدرسة العلوم بمدينة (على كره) التي تعرف اليوم بالجامعة الإسلامية بعلى كره ويغلب عليها تدريس الثقافة الإنجليزية - الاستعمارية. ولما كان السيد أحمد حسن من بين المسلمين الذين يحاربون تلك الثقافة بالهند، فقد منع أولاده من الالتحاق بها.

تلقى الإمام المودودي علومه الابتدائية الأولى على والده، فدرس اللغة العربية والقرآن والحديث والفقه واللغة الفارسية، وحفظ موطأ الإمام مالك. وبجانب تلقى هذه العلوم الإسلامية واللغوية، أخذ عن أبيه التربية الحسنة في الأخلاق والعادات، يقول أبو الأعلى عن تلك التربية: «إن والدي شملني بالتربية الصحيحة، والتوجيه السديد، بلغة راقية، وكنت إذا أوردت على لساني كلمة دارجة منعني من استعمالها، وطلب منى عدم تكرارها، وكان يلقى على قصص الأنبياء، وأحداث تاريخ الإسلام، والوقائع الشهيرة من تاريخ الهند. كما كان يلقى على الحكايات التي تتضمن دروسًا وعبرًا، ولا أزال أشعر بفائدة تلك التربية إلى اليوم. وكان والدي

يرحمه الله يهتم بصفة خاصة أن يعلمني في الصغر اللغة العربية، فتأتى لي أن أترجم بعض الكتب العربية إلى اللغة الأوردية بأسلوب نال إعجاب الجميع»[١].

والتحق أبو الأعلى بالمدرسة الثانوية في مدينة (أورانج آباد) وكانت سنه إذ ذاك إحدى عشرة سنة في سنة ١٩١٤م، وتخرج منها في سنة ١٩١٧م بتفوق أثار إعجاب أساتذته، ولما توفى والده في عام ١٩١٧م وكان في الرابعة عشرة من عمره انتقل أبو الأعلى إلى مدينة (دهلي) فكانت إقامته بها إقامة ميمونة، إذ فتحت عليه آفاقًا جديدة من الثقافة والمعارف، خاصة في الفترة التي تمتد من سنة ١٩٢١ إلى سنة ١٩٢٨م، فتعمق في دراسة العلوم الإسلامية، وكانت مدينة (دهلي) عامرة بنخبة ممتازة من العلماء الذين مهروا في العلوم الإسلامية والعربية، فقرأ كتب الحديث خاصة الموطأ للإمام مالك. والجامع للإمام الترمذي على المحدث الشيخ إشفاق الرحمن الكاندهلوي، وقرأ التفسير والفقه والمنطق على الشيخ شريف خان، ودرس علوم المعاني والبلاغة والأدب العربي على الشيخ عبد السلام نيازي. كما تعلم اللغة الإنجليزية في (دهلي) وعن طريق دراسته للغة الإنجليزية عرف الأدب الإنجليزي، والتاريخ والفلسفة، والعلوم الاجتماعية في الغرب.

وبجانب تلقيه هذه العلوم التي نبغ فيها، عمل بجريدة (الجمعية) أربع سنوات متتالية من سنة ١٨٢٤ - ١٩٢٨م وكان يكتب بأسلوب اتسم بالوضوح والموضوعية، كما أنه نشر في الفترة نفسها في حلقات متسلسلة كتابين نالا قبولًا في الأوساط العلمية هما: «مصدر قوة المسلم»، و«الجهاد في الإسلام». وكان مدفوعًا في ذلك بضرورة مواجهة الاحتلال الإنجليزي لبلاده (الهند) وقلقه على الخلافة الإسلامية التي تكاد تسقط، وسقوط فلسطين في أيدي الاحتلال الإنجليزي. هو نفسه يتحدث عن هذه الفترة بقوله: «لما بلغت سن الرشد وجدت بلدي: القارة

(١) خليل أحمد الحامدي: مجلة الأمة القطرية، العدد ٩، رمضان ١٤٠١هـ، ص ٥٤.

الهندية تعيش حركة ثورية عظيمة، فقد نهض المسلمون بعد الحرب الكونية الأولى للحفاظ على الخلافة الإسلامية، والدفاع عن الأماكن الإسلامية المقدسة، وإنقاذها من أيدي المحتلين، وكان هذا الشعور دينيًا محضًا حرك الأمة الإسلامية بأسرها.. وكان المسلمون في الهند يغلب عليهم نزعة الحفاظ على الخلافة الإسلامية، على ما كانت تعانى الخلافة من العلات، وخوف الزوال والانهيار، لأنها كانت على رغم ذلك أملًا وحيدًا لبقاء الوحدة الإسلامية. كما أن جميع الأماكن المقدسة باتت مهددة من قبل المحتلين، فاندفعت إلى أن أساهم في حركة الخلافة الإسلامية»[1].

ولكن أبا الأعلى المودودي أصيب بخيبة أمل، لأنه وجد الزعامة في تركيا تنتقل إلى أيدي الأتراك الذين تعلموا في الغرب، وصاروا ينزعون منزع القومية التركية المطبوعة بالفكرة العلمانية. وسار على النهج نفسه بعض الزعماء العرب فاتخذوا القومية العربية، وعاضدوا الإنجليز في الحرب، وبالتالي مكنوهم من السيطرة على البلاد العربية، ومنها الأماكن المقدسة.

وفى ذلك الوقت كانت القاديانية الموالية للإنجليز تنشر أفكارها الهدامة، وفى مقدمتها تحريم الجهاد الإسلامي في مواجهة الإنجليز الذين يحتلون الهند، فكانت الدوافع قد اتحدت لكي يصدر كتاب «الجهاد في الإسلام» وهو سفر كبير يبلغ خمسمائة صفحة من القطع الكبير، وقد قصد به أن يبين أن الإسلام بعث إلى الدنيا ليبقى، ويبقى المسلمون يعيشون في ظله أعزة، كما بين فيه أن القرآن هو الشاهد والهداية والدعوة، يشهد على العالم بصدق الإسلام وكونه دين الحق، والعدل والأمانة والصدق، وأنه دين الإدارة المدنية. وإعلاء كلمة الله في الأرض.

وفى سنة ١٩٢٩م ترك أبو الأعلى المودودي (دهلي) وغادرها إلى (حيدر آباد الدكن) كما ترك الصحافة وقرر ألا يدخل عالمها مرة ثانية في المستقبل إلا ليجعلها

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٥٦.

طوع قلمه، ووسيلة يخدم بها الإسلام. وفى الفترة من سنة ١٩٢٩م إلى سنة ١٩٣٢م اشتغل بأعمال صغيرة يتعيش منها، وأخذ يقضى أغلب وقته في التحصيل العلمي. يقول عن تلك المرحلة «أفرغت العديد من خزانات الكتب في ذهني استعدادا للمهمة الجديدة، مهمة الدعوة إلى الإسلام، في عصر يفرض على الداعية أن يتزود بزاد علمي شامل. وفى سنة ١٩٣٣م تولى إدارة مجلة «ترجمان القرآن» وكانت رسالة هذه المجلة أشبه بمجلة المنار التي كان يصدرها بمصر الشيخ محمد رشيد رضا - وكان المودودي في إدارة المجلة وتحريرها أشبه بالشيخ رشيد، فهو الذي كان يكتب الافتتاحيات والمقالات، والمناقشات، والردود على أسئلة القراء، وهو الذي يذهب بموادها إلى المطبعة ويراجعها - أما هدف المجلة فقد كان مثل هدف مجلة المنار: إعلاء كلمة الله، ونقد الأفكار المنحرفة عن الإسلام، وعرض المبادئ التي جاء بها كتاب الله، وسنة رسوله في كل مجالات: العلم، والسياسة، والاقتصاد، والمدنية، والاجتماع، وتطبيق المبادئ الإسلامية على ظروف العصر الحاضر، ودعوة الأمة الإسلامية إلى حياة جديدة يعلوها: التمسك بصراط الله المستقيم، وأن يجعل المسلمون قلوبهم وأذهانهم خاضعة لله تعالى، وأن يأخذوا كتاب الله القرآن الكريم بقوة ليكونوا سادة العالم، وتكون حضارتهم سيدة الحضارات وإمامها.

مرت أيام حالكة على الإمام المودودي كان أحوج ما يكون فيها إلى المال، وكان الشيخ مناظر الأحسن الكيلاني يعلم ما آلت إليه حال المودودي فتوسط لدى رئيس حيدر آباد الدكن السيد أكبر حيدري ليعينه أستاذًا في الكلية العثمانية مقابل راتب شهري مرموق، لكن الإمام المودودي رفض العرض لكي يبقى متفرغًا لشئون مجلة (ترجمان القرآن). وفى هذه الفترة من سنة ١٩٣٣م إلى سنة ١٩٤١م أصدر:

١ - الحضارة الإسلامية أصولها ومبادئها.

٢ - نحن والحضارة الغربية.

٣- الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة.

٤- مفاهيم إسلامية حول الدين والدولة.

٥- في محكمة العقل.

٦- الرسول والرسالة.

٧- حقوق الزوجين.

٨- مبادئ الإسلام.

٩- أسس الاقتصاد بين الإسلام والنظم المعاصرة.

١٠- الحجاب.

١١- الإسلام كما جاء به الرسول ﷺ.

١٢- نظرة الإسلام السياسية.

١٣- نظرة فاحصة على العبادات الإسلامية.

١٤- موجز تاريخ تجديد الدين.

١٥- المصطلحات الأربعة في القرآن.

١٦- الإسلام والجاهلية.

١٧- منهج جديد للتعليم والتربية.

١٨- معضلات الإنسان الاقتصادية وحلها في الإسلام.

ودارت مؤلفات هذه الفترة حول نقد الانحرافات التي تغلغلت في المجتمعات الإسلامية المعاصرة، وشرحها بالنقد والفحص وإبراز عيوبها ومضارها الخلقية والاجتماعية، وانتقد في الوقت نفسه دعاة الجمود والتقليد في المذاهب الفقهية، وانتقد أدعياء الاجتهاد المطلق، بدون شروطه الشرعية. كما انتقد المنكرين لحجية

obeikan.com

السنة، وكذا المتساهلين فيها، وانتقد كذلك دعاة التحرر من الدين.

وفى ذات الوقت شرح نظام الحياة في الإسلام، كما جاء في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ بأسلوب قائم على الاستدلال العقلي، كما بين عقيدة الإسلام في نظرته نحو الكون والإنسان، وعرّف بماهية المبادئ الأساسية للإسلام في المدينة والاجتماع والاقتصاد والسياسة، ونظام التربية والتعليم الذي يتواءم مع الفرد المسلم والجماعة المسلمة. وأكد منهجه في كل ذلك بقوله: «لم أقصد إصدار بحوث علمية في المواضيع الإسلامية فقط، بل استهدفت من ذلك أن يؤمن الإنسان العصري بالإسلام، بالشعور والقناعة، لا بالقشور والعاطفة»(١).

ويلخص المودودي مخططه في عبارة موجزة فيقول: «المخطط الذي أريده يتلخص في أمرين رئيسيين: تبيين أوجه النظام الإسلامي بأسلوب علمي، وإعداد الرجال الذين يصلحون لقيادة المسلمين فكريًا وعلميًا»(٢).

تأسيس الجماعة الإسلامية:

في الرابع والعشرين من أغسطس سنة ١٩٤١م اجتمع أبو الأعلى المودودي، وطائفة من تلاميذه ليدرسوا فكرة تأسيس جماعة إسلامية تستمد مبادئها من النظام الإسلامي، وفى الاجتماع الأول للجماعة وضعوا القانون الأساسي لها الذي يتضمن أهداف الجماعة وعقيدتها، وتتلخص هذه المبادئ فيما يلي:

١- أن يكون غاية الدين، كسب مرضاة الله، والمقصود بإقامة دين الله أن يكون كاملًا، سواء فيما يرجع إلى الحياة الفردية، أو الجماعية في العبادات والاقتصاد والاجتماع والمدنية والسياسة، إذ لا يوجد في الإسلام ما ليس ضروريًا، فالإسلام كله ضروري. وعلى هذا يكون هدف المؤمن إقامة الدين ابتغاء مرضاة الله التي لا

(١) خليل أحمد الحامدي: أبو الأعلى المودودي، مجلة الأمة، العدد العاشر، شوال ١٤٠١هـ، ص ٧٥.
(٢) المرجع السابق نفسه، ص ٧٦.

تحصل إلا بالبذل في سبيل إقامة الدين.

٢- عقيدة الجماعة فيما تحمله كلمة «الشهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله» أي الاعتقاد بأن الله تعالى واحد لا يشاركه غيره في الملك. وأن يجعل رضي الله مقياس ما يحبه وسخط الله مقياس ما لا يحبه ﷻ، وأن يجعل ابتغاء مرضاة الله مناط حياته. وأن يهتدي بهدى الله في أخلاقه ومعاملاته، وكل حياته بكل توجهاتها، وغاياتها. وأن يؤمن بأن محمدًا ﷺ خاتم الرسل والأنبياء. وأنه أرسل رحمة للعالمين وأنه ﷺ الهداية في الحياة العملية، والمثال الذي يحتذى، والقدوة التي يقتدي بها، ولكي يؤمن المسلم بهذا يجب عليه أن يقبل ما ثبت عنه ﷺ من تعاليم وهدى، في قول أو فعل أو تقرير.

٣- وأن يتخذ كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ مصدرين في كل شأن من شئون الحياة[1].

٤- وأن يفرغ من قلبه كل نوع من أنواع العصبيات الشخصية أو العنصرية، أو الطائفية، وألا يتخذ إنسانًا سوى رسول الله ﷺ مقياسًا للحق.

وفى أغسطس سنة ١٩٤٧م انقسمت الهند إلى دولتين (الهند وباكستان) ولم تكن الدولة الثالثة بنجلاديش قد قامت، وكان على رأس القائمين على الدولة الجديدة حزب الرابطة الإسلامية بقيادة القائد محمد علي جناح، الذي دعا لجنة من العلماء لإعداد خطة الحكم الإسلامي، كان من بينها أبو الأعلى المودودي، لكن إنشاء باكستان دولة إسلامية مستقلة عن الهند لم يتح للمودودي أن ينفذ كل المبادئ الإسلامية والتعاليم الدينية التي تأسست عليها جماعته، وهنا فقد جعل مجال دعوته على صفحات ترجمان القرآن، وهذا ما لم يطب للقائمين على الحكومة، فحاولوا

(١) ارجع إلى خليل أحمد الحامدي: المودودي، مجلة الأمة، العدد الحادي عشر، ذو القعدة سنة ١٤٠١هـ، ص ٣٦ - ٣٩.

التصدي لدعوته، ولكنه ما فتئ أن وسع دائرة الدعوة لتشمل محطات الإذاعة، إذ جاهر بضرورة سرعة التطبيق العملي للشريعة الإسلامية. فقبض عليه في شهر أكتوبر ١٩٤٨م أي بعد إعلان دولة باكستان الإسلامية بسنة وشهرين، ولكن الشعب الباكستاني ناصره، وطالب بالإفراج عنه، فاضطرت الحكومة إلى إطلاق سراحه بعد عشرين شهرًا قضاها في السجن في يونيو ١٩٥٠م، ولكنه بعد خروجه من السجن لم يمتثل لأوامر الحكومة، بل أعد مشروعًا لتنفيذ الحكم بالشريعة الإسلامية، فقبض عليه ثانية وصدر الحكم بإعدامه في سنة ١٩٥٣م، ولكن العالم الإسلامي استنكر الحكم، فخفف إلى السجن مدى الحياة، ولكن الساعين إلى الحق طلبوا من الحكومة إلغاء الحكم فاستجابت الحكومة وأطلق سراحه في سنة١٩٥٤م، وفى السنوات التالية استمر المد والجذر بين الحكومة والجماعة الإسلامية حتى فرضت الحكومة الحظر على الجماعة، وأمرت بسجن المودودي مع بعض من رجال الجماعة، ولكن المحكمة العليا أصدرت حكمها بإطلاق المودودي، ورفع الحظر عن الجماعة فكان ذلك انتصارًا لمبادئه»[(١)].

وظل المودودي على هذا الحال بين حظر ومنع وعمل في التأليف والدعوة إلى الله. وكان أكثر ما يشغله قضية كشمير المسلمة وضمها إلى باكستان، ولم يقو جسده الضعيف على تحمل كل هذه المشاق، مع ما كان يعانيه من المرض، فاضطر إلى الاستقالة من رياسة الجماعة، وعكف على التأليف العلمي متفرغًا له لكي ينهى التفسير القرآني «تفهيم القرآن الكريم» وبقى على هذا إلى أن توفى رحمه الله في سنة١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

تجديد المودودي في التفكير الديني:

في موسوعة أعلام الفكر الإسلامي - بين الدكتور محمد رجب البيومي منهج

(١) د. محمد رجب البيومي: موسوعة أعلام الفكر الإسلامي، ص ١٠٨.

العلامة المودودي في تجديد التفكير الديني، فقد كان السابقون عليه في العصر الحديث أمثال: جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ومحمد فريد وجدي يقفون موقف الدفاع أمام هجوم المستشرقين وأذنابهم من مواليهم المحللين، لكن المودودي لم يقف موقف الدفاع فقط، بل تعداه إلى الهجوم على الحضارة الأوربية، وقد نظر فوجد أن البهارج الخادعة التي يتغنى بها هؤلاء تنحصر في ثلاث: العلمانية والقومية والديمقراطية. فأفرد لكل نظام من هذه النظم الغربية بحثًا يظهر عواره، معتمدًا على القرآن الكريم ومعتضدًا به[(١)].

كان المودودي يهاجم العلمانية لأنها نظام ينبذ الدين ويتجاهله، وترفض أن يكون له دور ما في تقويم حياة الناس وتسييرها. وهذا يناقض ما نزل به القرآن الكريم، فليس بمعقول أن ينزل الله تعالى في كتابه العزيز أحكامًا ويفرضها عليهم نظامًا كونيًا عامًا تقوم عليه حياة الفرد والجماعة ثم يرفض ويتنحى عنه، وإن الناس لو نحوا الدين عن حياتهم لاستولت عليهم أهواؤهم، وأعمتهم الأنانية، ولن يصلحهم إلا الرجوع إلى الدين القيم الذي فرضه الله تعالى عليهم. وفى ذلك يقول المودودي: «لا يسلم المسلم لغير الله بأنه مالك الملك، ومصدر السلطة العليا، ولا يعترف لأحد غير الله بحقه في الأمر والنهى بناء على سلطته الذاتية. وكذلك لا يؤمن بغير الله شارعًا ومقننًا، ويرفض كل طاعة لا تتبع طاعة الله، ولا تلتزم بأحكامه»[(٢)].

٢- مشكلة القومية، وهى نبت أوربي بحت، دخل الهند مع الاحتلال البريطاني لها في سنة ١٨٥٧م، وعندما هب الشعب الهندي بكل طوائفه ليحرر أرضه من الاحتلال البريطاني انقسم الناس في شبه القارة الهندية إلى معسكرين: الأول موال

(١) المرجع السابق، ص ١٠٨ - ١١٠.
(٢) مجلة الأمة، العدد ١١، ص ٢٧.

لحزب المؤتمر الوطني الهندي بزعامة غاندي، ونهرو وجماعة من المسلمين، وكان هذا المعسكر ينادى بوحدة الشعب الهندي بجميع أجناسه وطوائفه ومذاهبه تحت القومية الهندية، والثاني كان مواليًا لحزب الرابطة المسلمة بقيادة محمد علي جناح، الذي كان يطالب بإنشاء باكستان في المناطق التي يعيش فيها المسلمون. وكان المودودي يرفض فكرة القومية الهندية، وقال في ذلك: «إن هذه الفكرة هي اتخاذ القومية إلهًا يعبد، ويحطم أمام عتباته كل العقائد والقيم، وألف كتابين ينقض فيهما فكرة القومية هما: «الكفاح السياسي الحاضر والمسلمين» في جزئين، و«مشكلة القومية» دعمًا لفكرة إنشاء دولة باكستان المسلمة، وكان الشاعر الحكيم محمد إقبال يؤيده قائلًا شعرًا: «إن إله القومية أصبح أكبر الآلهة الحديثة. ولباس هذا الإله كفن الدين» (١).

إن المودودي رفض القومية وهاجمها، لأنه كان يريد إقامة دولة باكستان على أساس شريعة الإسلام، وليس على أساس القومية.

٣ - الديمقراطية: وهى الكلمة اليونانية التي معناها أن يحكم الشعب نفسه بنفسه، هاجمها المودودي على أساس أن ذلك لم يتحقق أبدًا، لأن الحزب الذي يصل إلى السلطة، ويكون في الغالب حزب الأغلبية يضع السلطة في يده، ولا يصبر على رأى الأمة، وهذا يخالف ما شرع الله تعالى في الحكم وإقامة العدل بين الناس.

المودودي والقاديانية:

عندما احتل الإنجليز الهند، فكروا في صنع جماعة من بين المسلمين تقوم بالتشكيك في القيم الإسلامية، فتفرق الكلمة وتبعدهم عن التفكير في مواجهة الاحتلال، على أن يكون فكر هذه الجماعة مذهبًا وعقيدة، لتكون أكثر تأثيرًا في المسلمين، وعند ذلك سيجد الاحتلال أعوانًا له من بين المسلمين أنفسهم على

(١) مجلة الأمة، العدد ١١، ص ٢٩.

المسلمين، واختاروا لذلك ميرزا غلام أحمد القادياني، وساعدته السلطات الإنجليزية بالهند على تسجيل مذهبه رسميًا في سنة ١٩٠٠م، وادعى غلام أحمد أولًا أنه المهدي، ثم زعم أن عيسى ومحمدًا عليهما السلام حلا فيه، فهو نبي واستلزم هذا الادعاء إنكار ختم النبوة برسالة محمد ﷺ الذي قال تعالى فيها: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٤٠].

كما أن القادياني أعلن إبطال الجهاد في سبيل الله، وكان ذلك أهم أهداف الإنجليز من تأسيس هذه الجماعة، التي نادت بمنع الجهاد في مواجهة الإنجليز المحتلين، وطالبت بوجوب طاعتهم(١).

كان على المودودي أن يتصدى لهذه الجماعة الضالة المضلة بتفنيد آرائها ونقضها، وتبيين أنها من صنع الإنجليز، وأن هدفها تمزيق شمل المسلمين، وإضعاف جهادهم ضد المحتلين، ووقف محمد إقبال وأبو الحسن الندوي يؤيدانه رحمهم الله جميعًا.

كيف يطبق النظام الإسلامي في باكستان برأي المودودي؟:

كان تطبيق النظام الإسلامي في باكستان شغل المودودي الشاغل، وكان يرى أن ذلك يبدأ من الحكومة، إذ إن الحكومة المؤمنة بالله، المستقيمة السلوك هي التي تستطيع أن تطبقه، بتكريس وسائل الإعلام، وجميع أجهزة التعليم في نشر الوعي الإسلامي بين عامة المسلمين، وإصلاح حالتهم الخلقية، ثم تضع نظامًا للتربية والتعليم، يكوّن من عامة الأفراد عنصرًا صالحًا للمجتمع الإسلامي، بأن تركز الحكومة على تدريس الإسلام في جميع مراحل التعليم، مع تبصير الناشئة بما هو

(١) راجع د. محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ص ٤٥ - ٤٦، ط ٨ مكتبة وهبة.

الإيمان، والأخلاق. وإذا عمق أساس الإيمان قبل كل شيء، ثم أقيم على ذلك الأساس نظام الأخلاق بكامله، ونظام الاجتماع، ونظام الاقتصاد، ونظام السياسة والقانون مع التزام كل المؤسسات التشريعية والقضائية والتنفيذية بهذه الأسس، لأصبح تطبيق النظام الإسلامي كما جاء في كتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ ميسورًا، أما تطبيق منهج النظام الإسلامي فيشرع أولًا بغرس الإيمان في قلوب الناس، ثم يأخذ في تقويم سلوكهم بكل ما يمكن من الأساليب والوسائل التي تخلق رأيًا عامًا قويًا لتنمية المعروف، وإنكار المنكر الذي يضيق مجال العمل السيئ، ويسهل مجال العمل الحسن. ثم يحاسب المسلم بعمله بعد ذلك [(١)].

المودودي وتفهيم القرآن:

سمى المودودي كتابه في تفسير القرآن (تفهيم القرآن)، واستهدف من وراء ذلك أمرين ذكرهما في المقدمة هما: تعريف القارئ بالأشياء التي تساعده على فهم معاني القرآن التي ستظل تعاود كرتها في ذهنه، والإجابة على الأسئلة التي تثور عادة في ذهنه أثناء تناوله للقرآن.

ثم ينبه في المقدمة إلى أن القرآن الكريم لا يحوي معلومات وأفكارًا وتصورات ومناقشات حول قضايا وأفكار معينة معدة في قالب أدبي، كما أن القرآن الكريم يقر عقائد، ويسدى تعاليم أخلاقية، ويشرع تشريعات ويدعو الناس للإسلام، وينذر الكافرين، ويعطى دروسًا وعبرًا من حوادث تاريخية، ويرهب ويرغب، وينذر ويبشر. وهو ليس كأي كتاب من كتب البشر. وكل من الإنسان والعالم (الكون) مذكور فيه بلغة تغاير لغة العلوم ومصطلحاتها.

كذلك يرى أن القرآن يتبع طريقة في حل المشاكل التعليمية والثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، كما يتناول مبادئ التشريع وأصوله بأسلوب يخالف

(١) راجع حوار معه بمجلة الأزهر عدد جمادى الأولى ١٣٩٩هـ - إبريل ١٩٧٩م، ص ٧٩٠ - ٨٠٤.

منهاج كتب الاجتماع والقانون، كما أن القرآن يلقن الأخلاق بطريقة ليس لها نظير من قبل ومن بعد.

ومن الضروري لفهم القرآن أن نعلم أولًا أنه كلام الله تعالى، كما ينبغي أن يعرف الإنسان طريقته في شرح الأشياء، بأسلوبه المعجز، وأن يضع أمام ذهنه أسباب النزول، وفيما أنزلت آياته، ويعلم أن منزله عز شأنه على نبيه ﷺ، هو خالق هذا الكون ومالكه وحاكمه، وأنه هو الذي خلق الإنسان وأودعه قدرات العلم والفهم والتمييز بين الخطأ والصواب، والخير والشر، وحباه حرية الاختيار والإرادة، وحرية العمل، وأعطاه علم اكتشاف ما يحيط به واستغلاله، وأنه تعالى هو الذي منحه الاستقلال الذاتي، وجعله خليفة له في الأرض، وأرشده ليعيش فيها وفق هديه.

وأن يعلم أن موضوع القرآن هو الإنسان، الذي هداه الله تعالى هداية البيان إلى أنماط الحياة التي تقوده إلى النجاح في الدنيا والآخرة، أو تقوده إلى دار البوار. والقرآن يناقش الإنسان في كل ذلك مناقشة عقلية محكمة.

وليعلم قارئ القرآن أنه نزل بالمبادئ العامة التي اختارها منزله تعالى للبشر، ولكن الله عز شأنه أرسل مع القرآن رسوله محمدًا ﷺ ليبينه للناس، فوظيفة القرآن الأساسية أن يقدم قواعد كلية عقلية وخلقية واضحة لتكون معالم الطريق الإسلامي، ثم تتحدد رسالة الرسول ﷺ ليبين للناس التعاليم، ويشرح لهم المبادئ بممارستها في الواقع العملي.

والإنسان لا يستطيع أن يسبر غور القرآن الكريم، ما لم يطبق رسالته تطبيقًا عمليًا، لأنه كتاب مبعوث لدعوة الناس لأن يبدءوا حركة إيمانية في ميدان الحياة.

ولكي يفهم الإنسان القرآن حق فهمه لابد أن يفهم الصراع بين الإيمان والكفر، بين الإسلام، وبين الباطل، فالإنسان يستطيع أن يفهم القرآن فقط متى

تبنى رسالته وعمل من كل شيء وفق هدايته، وتعاليمه التي تخص كل أنماط الحياة الإنسانية (راجع مقدمة المودودي لتفهيم القرآن، تعريب د. أحمد إدريس، دار القلم، ١٣٩٨هـ)

أهم مؤلفات الإمام المودودي:

١- تفسير سورة النور. ٢ - الحجاب.

٣- الربا. ٤- الجاهلية والإسلام.

٥- مبادئ الإسلام. ٦- الدين القيم.

٧- نظرية الإسلام السياسية. ٨- معضلات الاقتصاد وحلها.

٩- نحو دستور إسلامي. ١٠- المسألة القاديانية.

١١- دور الطلبة في المستقبل. ١٢- منهج الانقلاب الإسلامي.

١٣- المصطلحات الأربعة في القرآن.

١٤- نظرية الإسلام الخلقية.

١٥- نظام الحياة في الإسلام.

١٦- الأسس الخلقية للحركة الإسلامية.

١٧- المسلمون ومعضلات السياسة المعاصرة.

١٨- واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم.

المصطلحات الأربعة في القرآن لأبى الأعلى المودودي:

تعريب: محمد كاظم سباق الناشر: دار القلم الكويت - ط٥/ ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

كتب أبو الأعلى المودودي هذه الرسالة في سنة ١٣٦٠هـ - ١٩٤١م، وهى السنة التي تأسست فيها «الجماعة الإسلامية» بالهند، وقد كتبها المودودي ميثاقًا

يوضح به دعوة الجماعة وتحديد موقفها من جميع الأحزاب والجمعيات التي كانت قائمة في الهند آنذاك.

نشر المودودي فصول هذه الرسالة تباعًا في مجلته الشهرية «ترجمان القرآن» ثم جمعها ونشرها في رسالة سماها «المصطلحات الأربعة في القرآن».

كتب المودودي «المصطلحات الأربعة في القرآن» باللغة الأردية، وكانت أول ترجمة لها بالعربية، تلك التي قام بها الأستاذ محمد كاظم سباق.

قدم المودودي للرسالة فذكر أن المصطلحات الأربعة في القرآن هي «الإله، والرب، والدين، والعبادة» وبين أن هذه الكلمات الأربع هي أساس المصطلح القرآني وقوامه، فجماع ما يدعو إليه القرآن الكريم هو أن الله تعالى، هو الإله الواحد الأحد، والرب الفرد الصمد، لا إله إلا هو، ولا رب سواه، «فيجب على الإنسان أن يرضى به إلهًا، وأن يتخذه دون سواه ربًا، ويكفر بإلوهية غيره، وربوبية من سواه، وأن يعبده وحده، ولا يعبد أحدًا غيره».

قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤]. وقال عز من قائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٥١].

إن من يقرأ القرآن ويتبع آياته يحس أن كل ما نزل به القرآن الكريم يدور حول هذه المصطلحات الأربعة وهى:

«أن الله هو الرب والإله.

وأنه لا رب ولا إله إلا هو

وإياه ينبغي أن يعبد الإنسان

وله وحده ينبغي أن يخلص الدين» (المقدمة، ولابد لمن أراد أن يدرس القرآن ويسبر غوره أن يتفهم المعاني الصحيحة لهذه المصطلحات الأربعة. فيعرف معاني:

الإله، والرب، والعبادة، والدين، وحقيقة التوحيد. كما يفهم ماهية الشرك. فإذا كان الإنسان لا يعرف المعنى الصحيح لهذه المصطلحات الأربعة، أو كان مفهومها غامضًا في ذهنه، أو معرفته بمعانيها منقوصة، «فلاشك أنه يلتبس عليه كل ما جاء به القرآن من الهدى والرشاد، وتبقى عقيدته وأعماله كلها منقوصة، مع كونه مؤمنًا بالقرآن» ومؤمنًا بالإسلام.

كيف فهم العرب الذين نزل فيهم القرآن هذه المصطلحات الأربعة؟:

لما نزل القرآن في العرب، كان يعرف كل منهم ما معنى «الإله» وما المراد بـ«الرب» ويحيطون علمًا بجميع المعاني التي تطلق عليهما، وكذلك كانت كلمتا «العبادة» و«الدين» فكانوا يعرفون المنهاج العلمي الذي يطلق عليه اسم «العبادة» وما مغزى «الدين». ومن ثم فلم يخطئوا في فهم هذه الدعوة التي جاء بها القرآن، وما إن قرعت كلماتها أسماعهم حتى تبينوا أي نوع من التغيير في نظام حياتهم جاءت هذه الدعوة تطالبهم به».

ولكن بمرور العصور أخذت معاني هذه المصطلحات الأربعة تضيق عما كانت تتسع له وتحيط به من قبل، وتنحصر في معان ضيقة محدودة، وذلك لسببين:

الأول: نضوب معين العربية الخالصة خاصة في العصور المتأخرة لدى المسلمين.

الثاني: أن الذين ولدوا في المجتمع الإسلامي ونشأوا فيه لم يكن قد بقى لهم من معاني كلمات الإله والرب والعبادة والدين ما كان معروفًا في المجتمع العربي وقت نزول القرآن، فكانت النتيجة أن تعذر على الناس أن يدركوا المقصد الحقيقي من دعوة القرآن وتعاليمه، بل لقد غابت عنهم روحه السامية وفكرته المركزية لما غشى هذه المصطلحات الأربعة الأساسية من حُجب الجهل، فكان ذلك من أكبر الأسباب التي تطرق لأجلها الوهن والضعف إلى عقائدهم وأعمالهم على قبولهم دين الإسلام، وكونهم في عداد المسلمين» ومن ثم فقد أراد المودودي أن يفصل

معاني المصطلحات الأربعة، ليبين غرض القرآن الحقيقي منها وتعاليمه الأساسية، مؤيدًا كل ما أتى به من تفصيل بالقرآن الكريم، ومستندًا إلى معاجم اللغة العربية، خاصة التي تضمنت كلام اللغويين قريبي العهد بوقت نزول القرآن الكريم.

١ - **الإله**: يبدأ الكلام في هذا المصطلح (الإله) بالتحقيق اللغوي للكلمة من معاجم اللغة، وكتب التفسير، ويخرج بمعانٍ أهمها: الإله بمعنى المعبود، والتأله أي العبادة، ويؤكد على أن أول ما ينشأ في ذهن الإنسان من الحافز على العبادة والتأله ما يلي:

١- احتياج العابد وافتقاره إلى المعبود، وإيمانه بأنه القادر على أن يسد حاجته، وأن ينصره، وأن يسكن من روعه في حال القلق والاضطراب.

٢- أن يعتقد بعلوه، وغلبته في القوة ويعترف بذلك.

٣- أن يؤمن بأن المعبود وقوته من وراء حجاب الغيب، مع اشتمال معنى الرفعة والعلو.

٤- أن يتجه العابد في شوق إلى من هو قادر على أن يقضى حاجته، ويأويه إذا نابته النوائب، ويجبره في النوازل.

تصور الإله عند العرب قبل الإسلام:

أولًا: يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴾ [مريم: ٨١]. ويقول تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ [هود:١٠١].

ويقول تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم

﴿مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٠ – ٢٢].

ويقول تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس: ٦٦].

١- لقد اتخذ أهل الجاهلية لأنفسهم آلهة ظنًا منهم أنهم سيكونون حماتهم في النوائب والشدائد.

٢- أن آلهتهم لم يكونوا من الجن أو الملائكة أو الأصنام فحسب، بل كانوا أفرادا من البشر قد ماتوا. لقوله تعالى: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢١].

٣- أنهم كما يزعمون أن آلهتهم هذه يسمعون دعاءهم، ويقدرون على نصرهم.

فكأن الداعي قد رأى في المدعو وليًا سميعًا بصيرًا، مع أنه قد ثوى في قبره، ولم يعدله أي نوع من السلطة على عالم الأسباب، وسواء كان المدعو وثنًا أو جنًا أو ملكًا أو بشرًا مات، وكان يعتقد حكمه نافذًا، فهو لا يقدر على التصرف تصرفًا غيبيًا خارجًا عن قوانين الطبيعة.

وهذا التصور «غير التصور الذي لأجله يدعو الإنسان الإله ويستغيثه، ويتضرع إليه، لكونه مالكا للسلطة المهيمنة على قوانين الطبيعة، والقوانين الخارجة عن دائرة نفوذ قوانين الطبيعة».

ثانيًا: يقول تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

ويقول تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس: ١٨].

فهم يعتقدون بوجود إله قاهر، كانوا يعبرون عنه بكلمة (الله)، وكانت عقيدتهم في سائر الآلهة - سوى الله القاهر - أن لهم شيئًا من التدخل والنفوذ لدى الإله الأعلى، وأن مطالبهم يمكن أن تتحقق باستشفاعهم لدى الإله الأعلى القاهر فوق عباده «ولمثل هذه الظنون كانوا يتخذونهم آلهة مع الله تعالى» .

ثالثًا: يقول تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [النحل: ٥١].

ويقول تعالى: ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [هود: ٥٤].

فإن أهل الجاهلية كانوا يخافون من غضب آلهتهم عليهم، فتصيبهم النوائب، والنقص في الأموال.

رابعًا: يقول تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

ويقول تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ [الفرقان:٤٣].

ويقول تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الشورى: ٢١].

والإله ههنا غير الذي سبق ذكره في تصورهم صاحب سلطة مهيمنة، فهو إما واحد من البشر – حبر أو راهب أو نبي وهو ما اتخذه اليهود والنصارى إلهًا – أو الإنسان نفسه الذي اتخذ هواه إلهه، أو اتخاذ إله يشرك الله تعالى في الألوهية.

وفى جميع ما تقدم ذكره من معاني كلمة (الإله). فإن الذي يتخذ كائنًا ما وليًا له، معتقدًا أنه مستجيب لدعائه، وقادر على أن ينفعه ويضره، بالمعاني الخارجة عن نطاق السنن الطبيعية ظنًا منه أن له نوعًا من أنواع السلطة على نظام هذا العالم، فهو يتخذ إلهه بمعنى من المعاني التي سبق تبيينها.

استدلال القرآن على إنكار إلوهية غير الله:

يؤكد القرآن على أن الذي يملك جميع السلطات والصلاحيات في السماوات والأرض هو الله تعالى وحده، فالخلق مختص به، والنعمة كلها بيده، والأمر له وحده، والقوة والحول في قبضته، وكل ما في السماوات والأرض قانت له ومطيع لأمره، ولا سلطة لأحد سواه، ولا ينفذ فيهما الحكم لأحد غيره، ومن ثم لا إله إلا هو» والآيات الدالة على ذلك في كل سور القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الأنعام: ١٠١، ١٠٢].

ويقول تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الأحقاف: ٤، ٥].

ومن الآيات التي استدل بها القرآن الكريم على وحدة الألوهية نجد فكرة رئيسية واحدة هي: أن كلًا من الألوهية والسلطة تستلزم كل منهما الأخرى، والذي

لا سلطة له لا يمكن أن يكون إلهًا. والأسلوب الذي يستدل به القرآن الكريم على أن الإله الواحد القاهر هو وحده عز شأنه صاحب القوة والسلطة والحول فيما يلي:

١- إن القوى التي تتولى أمر الخلق والتدبير في هذا الكون، هي التي تسير الكون، وتقضي كل أموره كبيرة كانت أو صغيرة، بحركة السماوات والأرض، وتحريك السيارات، وتصريف الرياح، وإنزال الأمطار، بل بتدبير نظام هذا الكون بأسره.

٢- والقوة التي تتولى أمر الخلق كلية غير قابلة للتجزئة، فكل سلطات تدبير الخلق، والموت والحياة، والرزق بيد الله سبحانه وتعالى.

٣- وإذا كانت القوة كلها بيد الله الواحد، فالإلوهية خالصة له دون غيره، ولا شريك له فيها، وليس في وسع أحد غيره عز شأنه أن يتصدى لأمر من أمور حكمه وتدبيره.

٤- وإذا علمنا أنه هو الله ﷻ القائم بتدبير نظام هذا الكون وتسييره، ولم يكن له في ذلك شريك، فإن ما يتطلبه العقل: ألا يكون الحكم والأمر والتشريع إلا بيده، وألا يكون أحد شريكًا له في الملك والحكم، ولا ينبغي أن يُعتقد أمر كائن ما من دون الله تجب طاعته والإذعان له بغير سلطان من عند الله، ومن يعتقد غير ذلك فإنه يأتي من الشرك بمثل ما يأتي به الذي يدعو غير الله ويسأله، وكذلك الذي يدعى أنه مالك الملك المسيطر القاهر، والحاكم المطلق بالمعاني السياسية، لأن ذلك كله من الله.

يقول عز شأنه: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ٢٦].

والملك لله عز شأنه وحده في الدنيا والآخرة يقول تعالى ذكره: ﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [غافر: ١٦].

الملك لله الذي غلبت سلطته جميع الخلق، وأحسن ما يفسر هذه الآية ما رواه الإمام أحمد بن حنبل في المسند، عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧] رسول الله ﷺ يقول: هكذا بيده ويحركها يقبل بها ويدبر، يمجد الرب نفسه: أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا العزيز، أنا الكريم، فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا: ليخرن به» .

وهذا الحديث صححه الشيخ أحمد محمد شاكر - وأخرجه البخاري ومسلم وأبو داود، واللفظ هنا للإمام أحمد بن حنبل.

٢ - الرب:

يبدأ الكلام عن الرب بالتحقيق اللغوي للكلمة، فأصل مادة كلمة الرب الأساسي التربية، والتنشئة والإنماء. يقال: رب الولد: رباه حتى أدرك.

ورب يرب: الزيادة والإضافة والإتمام، وربّ النعمة: أي زاد في الإحسان.

ومن معانيها: الجمع والحشد والتهيئة، والتعهد والاستصلاح والرعاية والكفالة. والعلاء والسيادة، والرئاسة وتنفيذ الأمر والتصرف، والتملك.

وخلاصة القول فإن كلمة «الرب» مشتملة على المعاني التالية:

١- المربى الكفيل بقضاء الحاجات، والقائم بأمر التربية والتنشئة.

٢- الكفيل والرقيب، والمتكفل بالتعهد بإصلاح الحال.

٣- السيد الرئيس الذي يكون في قومه كالقطب يجتمعون حوله.

٤- السيد المطاع والرئيس، وصاحب السلطة النافذ الحكم، والمالك لصلاحيات التصرف.

٥- الملك والسيد.

استعمال كلمة «الرب» في القرآن:

جاءت كلمة «الرب» في القرآن بجميع المعاني التي ذكرت.

المعنى الأول: قال تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [يونس: ٢٣].

المعنى الثاني: قال تعالى ﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

المعنى الثالث: قال تعالى: ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ [هود: ٣٤]، ﴿ قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ ﴾ [سبأ: ٢٦]. ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٨].

المعنى الرابع: قال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١] أي الذين تتخذهم الأمم والطوائف هداة ومرشدين يذعنون لأمرهم ونهيهم على الإطلاق.

المعنى الخامس: قال تعالى: ﴿ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۢ ﴾ [قريش: ٣ - ٤].

وبعد أن تجلت معاني كلمة «الرب» في آيات القرآن الكريم، أراد المؤلف أن يبين تصورات الأمم الضالة في باب الربوبية، ولماذا نقضها القرآن وهدمها، والمؤلف يتناول أحوال هذه الأمم الضالة، أمة أمة كما ذكرها القرآن ونقضها، على

الوجه التالي:

أولاً: أمة نوح عليه السلام :

ولم يكونوا منكرين بوجود الله تعالى، فقد تلا عليهم نوح قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠]. وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٥ – ١٧] فلم ينكر أحد منهم وجود الله، ولم يقل: ليس الله بربنا، أو ليس بخالق الأرض والسماء، ولا بخالقنا نحن، أو ليس هو الذي يقوم بتدبير الأمر في السماوات والأرض ولكنهم قالوا: «إن هناك آلهة أخرى تتعلق بها حاجاتنا، ونؤمن بهم آلهة لنا مع الله، ولم يكونوا يقولون بأن الله تعالى وحده حقيق بأن يكون له الحكم والسلطة القاهرة في أمور الأخلاق والاجتماع والمدنية والسياسة، وسائر شئون الحياة الإنسانية، بل اتخذوا رؤساءهم وأحبارهم أربابًا من دون الله في جميع تلك الشئون».

ثانيًا: قوم عاد:

كان قوم عاد كقوم نوح، فلم تكن تنكر وجود الله وكونه إلهًا، بل كانت تؤمن بربوبية الله تعالى بالمعاني التي كان يؤمن بها قوم نوح عليه السلام، كما كانت تؤمن بوجود آلهة أخرى تتعلق بها حاجاتهم. قال تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥]. قال تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف:٧٠].

ثالثًا: قوم صالح:

كان ضلالهم كضلال قومي نوح وهود من حيث عدم الإنكار بوجود الله تعالى، أو الكفر به إلهًا وربًا، ولكنهم آمنوا كذلك بآلهة أخرى مع الله تعالى اعتقدوا أنهم يسمعون دعاءهم، ويكشفون الضر عنهم، ويقضون حاجاتهم، وكانوا يأبون

إلا إتباع رؤسائهم وأحبارهم في حياتهم الخلقية، والمدنية. قال تعالى: ﴿ ۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود: ٦١]. وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [الشعراء: ١٥١،١٥٢].

قال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [هود: ٦٢].

رابعًا: قوم إبراهيم ونمروذ:

ولم يكن نمروذ ينكر وجود الله، أو ينكر أنه تعالى مدبر الكون ولكن كانت ربوبية نمروذ من النوع الثالث والرابع والخامس، فيما ذكر المودودي، أي أن يكون القطب الرئيسي الذي يجتمع الناس حوله، ويكون فيهم السيد المطاع صاحب السلطة النافذ الحكم، والملك المتصرف في شئونهم. فجاء إبراهيم عليه السلام يخاطبهم بقوله تعالى: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٨١] فهم لا ينكرون وجود خالق الكون، ولكنهم يشركون معه آلهة أخرى، فكان يخاطبهم بقوله تعالى: ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ [الأنبياء: ٦٦].

أما أمر نمروذ فقد قصه القرآن في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

لم يكن النمروذ يدعى الربوبية بمعنى أنه خالق الكون ومدبره، ولكن بمعنى

أنه مالك تلك المملكة التي كان يحكمها، وأن سلطته المركزية أساس لاجتماعهم حوله، وأمره قانون حياتهم، وتدل كلمات (أتاه الله الملك) دلالة صريحة على ذلك». كذلك اجتمعت له ربوبية صاحب العرش في مملكته في دائرة السياسة والأحكام المدنية. فيحكم بالقتل على من يشاء وبالحياة على من يشاء. وفى ذات الوقت كان يعترف بأن لا سلطان له على ملكوت السماوات والأرض وشروق الشمس وغروبها، ومن ثم سكت عندما قال إبراهيم ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وبين القرآن ذلك في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

لقد آثر نمروذ أن يظلم الخلق ويظلم نفسه بالإصرار على ملكيته المستبدة، فلم يؤته الله تعالى نورًا من هدايته.

خامسًا: قوم لوط عليه السلام :

كانوا مثل سابقيهم من الأمم غير منكرين لوجود الله تعالى، لكنهم كانوا يريدون أن يكونوا مطلقي الحرية يتبعون ما يشاءون من أهوائهم ورغباتهم المنحرفة، قال تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٨، ٢٩] فهم يؤمنون بالله تعالى ولا ينكرون إلوهيته تعالى وربوبيته، ولكن جريمتهم أن جعلوا أهواءهم أربابًا يتبعونها في شئونهم الخلقية والمدنية والاجتماعية.

سادسًا: قوم شعيب عليه السلام :

وهم أهل مدين، وأصحاب الأيكة، الذين بعث إليهم شعيب عليه السلام، وكانوا من ذرية إبراهيم عليه السلام، وكانوا يؤمنون بالله تعالى، وبكونه إلهًا وربًا، ثم أخذوا بالفساد في عقائدهم، والانحلال في أعمالهم، وصاروا يعتقدون الألوهية والربوبية في آلهة أخرى مع الله تعالى، ثم إنهم كانوا يعتقدون أن ربوبية الله تعالى لا تتدخل في شئون الحياة الإنسانية من الأخلاق والاجتماع والاقتصاد والمدنية والسياسة، ومن هنا رأوا لأنفسهم حرية التصرف فيما يشاءون، يقول تعالى فيهم: ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ٨٦ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود:٨٦، ٨٧] وإتباعهم أهواءهم دليل على ضلالهم الحقيقي في باب الربوبية والإلوهية.

سابعًا: فرعون وآله:

يشيع في فهم الناس أن فرعون لم ينكر وجود الله تعالى فحسب، بل كان يدعى الألوهية لنفسه، ولكن الحقيقة هي أن فرعون لم يكن يختلف ضلاله في باب الألوهية والربوبية عن ضلال نمروذ، لكن الفرق بين ضلال النمروذ وضلال فرعون، أن في زمن حكم فرعون نشأ تعصب وطني شديد سببه الرغبة في إخراج اليهود من مصر، فكان فرعون وملأه لأسباب سياسية يمتنعون من الاعتراف جهرًا بإلوهية الله خالق الكون ومدبره وربوبيته، وإن كانت قلوبهم تعترف بالله، والدليل على إيمان المصريين في زمن فرعون بإلوهية الله وربوبيته، أن فرعون لما أراد قتل موسى عليه السلام وقف أمير من حاشيته فقال قول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ

كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٢٨، ٢٩].

وهذا دليل على أن أثر الإسلام من رسالة يوسف عليه السلام كان باقيًا في الأمة المصرية، وأن الأمة المصرية لم تكن تجحد بإلوهية الله وربوبيته جحودًا باتًا، ولكنها كانت تشرك بالله تعالى في صفتي الألوهية والربوبية، وتجعل له فيهما أندادًا كفرعون.

«ولأن فرعون قال لقومه: ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات:٢٤] و﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص:٣٨] جعلت الناس يتخيلون أنه كان ينكر وجود الله تعالى، ويزعم لنفسه أنه الإله الواحد، ولكن الواقع الحق أنه لم يكن يدعى ذلك إلا بدافع من العصبية القومية» في مواجهة قومية بني إسرائيل الذين تمكن لهم نفوذ في أرض مصر استمر عدة قرون.

ويبين المودودي حقيقة النزاع بين موسى عليه السلام وفرعون، كما يبين بأي معاني كلمة «الرب» كان فرعون يدعى لنفسه الألوهية والربوبية، مستمدًا دليله من القرآن.

١- إن الذين كانوا يلحون من ملأ فرعون على حسم دعوة موسى عليه السلام واستئصالها من مصر يخاطبون فرعون ويسألونه ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

وتدل الآية على أن فرعون لو كان يدعى لنفسه الربوبية فيما فوق العالم الطبيعي، أو يدعى أنه هو الغالب المتصرف في نظام الأسباب المدبر لهذا الكون، وأنه لا رب سواه في السماوات والأرض، لما عبد الهة أخرى أبدًا».

٢- ويرى المودودي أن ظن فرعون في نفسه لا يزال مثله في الأسر المالكة في البلدان المتخلفة، كما كان في الحبشة إذ كان زعم الألوهية يتبع العرش في تنقله من

ملك إلى ملك.

٣- وهذه الألوهية التي ورثت عن فرعون، إلوهية سياسية، فقد كان فرعون رب مصر، أي مالكها وما فيها من الثروات، وله فيها الحاكمية المطلقة بقانونه المطلق، وهذا ما بينه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٥١].

وتلك هي دعوى ربوبية نمروذ نفسها ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

٤- أما دعوة الأنبياء عليهم السلام، فهي في الحقيقة: أنه لا إله ولا رب بجميع معاني كلمة الرب، إلا الله رب العالمين الخالق للكون ومدبر أمره، وأمر ما فيه، ومن فيه.

اليهود والنصارى:

وهؤلاء لا مجال للظن فيهم أن يكونوا منكرين لوجود الله، أو لا يعتقدون بإلوهيته تعالى وربوبيته، ولكنهم ضلوا. قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٧٧]. فهو ضلال جاء من غلوهم في دينهم. يقول تعالى فيهم: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۚ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:٧٩، ٨٠]. فقد غالوا في الأنبياء والملائكة فجعلوهم أندادًا لله. ولما زاد

الغلو فيهم اتخذوهم أربابًا من دون الله. يقول تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١]. ويقول تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٥١].

و «الجبت» كلمة جامعة لكل أنواع الأوهام والخرافات، وكل الأشياء الخارجة عن القوانين الطبيعية. والمراد «بالطاغوت» : كل فرد أو طائفة أو مؤسسة أو إدارة تتمرد على الله وتدعى لنفسها الألوهية والربوبية، فهم يعبدون الأحبار والرهبان وشيوخ الصوفية، والجبابرة والظالمين الذين بغوا على الله تعالى جهرة.

المشركون العرب:

وهم الذين خاطبهم خاتم الأنبياء والمرسلين، فما كان ضلالهم في باب الألوهية والربوبية، وهؤلاء كانوا يؤمنون بوجود الله تعالى، وبأنه خالق الكون ومالكه ومدبره وربه الأعلى، وبأن الآلهة التي عبدوها إنما اتخذوها لتقربهم من الله تعالى، يقول تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ﴾ [الزمر: ٣]. ولم يكونوا يعتقدون أن هذه الآلهة من الأصنام تهديهم في شئون حياتهم، يقول ﷻ: ﴿ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴾ [يونس: ٣٥]. ولكنهم اتخذوا لله شركاء. يقول تعالى: ﴿ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [الشورى: ٢١] وهم قوم جعلوهم سادة عليهم، بل جعلوهم شركاء مع الله في

الألوهية والربوبية، بأن سلموا بحقهم في أن يشرعوا لهم ما يشاءون من النظم والقوانين لشئونهم المدنية والاجتماعية، وأمورهم الخلقية والدينية».

إذن فقد كان ضلال الأمم السابقة على الإسلام أنها قد قسمت المعاني الخمسة لكلمة «الرب» إلى قسمين:

١- وهم الذين كانوا يؤمنون بأن الله تعالى هو ربهم الأعلى إلا أنهم كانوا يشركون معه في الربوبية الملائكة والجن والقوى الغيبية والنجوم والسيارات والأولياء والأحبار والرهبان والأنبياء.

٢- الذين اتخذوا هواهم ربًا - أي أن النفوس الإنسانية وحدها ربًا من دون الله، وهم يستسلمون لتلك النفوس في شئون الأخلاق والمدنية والسياسة، مع أنهم يؤمنون بأن الله تعالى هو الرب.

ولأجل ذلك جاءت دعوة محمد ﷺ تبين أن الرب بجميع معاني الكلمة هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد، وأن هذا الكون مرتبط بمن خلق وهو الذي يحكمه وحده، وهو وحده عز شأنه الذي يملك كل السلطة والصلاحيات لتدبير نظامه وإدارته، ولا قسيم له في ملكه وملكوته، فإنه وحده الرب الذي يملك الطبيعة الكونية وما فوقها وما وراءها، وهو الرب في شئون المدنية والسياسة والأخلاق، وهو وحده المعبود لا معبود سواه، المتكفل باستجابة الدعاء، وقضاء الحاجات، وهو الملك مالك الملك، مشرع التشريع، الآمر الناهي في أمور خلقه، كل ذلك هو حقيقة الأمر في الألوهية والربوبية، يقول تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ويقول تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ

لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

ويقول تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٢٣].

فالآيات تبين أن الربوبية هي الحاكمية والملكية، وهى كفيلة حفظ نظام الكون، وتحفظ بنيان الحياة الاجتماعية على الوجه الصحيح للأفراد والجماعات والأمة وجميع الخلق.

وبهذا يكون الله تعالى مالك الملك وسيده وحاكمه ومدبره «ولذلك فإن من يظن أن أمرًا من أمور الربوبية راجع إلى غير الله تعالى، فإنه يضاد الحقيقة، ويبغى على الحق، ويلقى بيده في التهلكة والخسران».

٣ ـ العبادة:

العبادة والعبودية في اللغة العربية هي الخضوع والتذلل، واستسلام المرء وانقياده لغيره، وكل خضوع ليس فوقه خضوع فهو عبادة، طاعة للمعبود أو غير طاعة.

وكل خاتمة لله، خضوع لا يستحقه إلا المنعم بأعلى أجناس النعم كالحياة والسمع والبصر والفهم والإدراك، وغير ذلك من النعم. فلذلك لا يستحق العبادة إلا الله تعالى.

والعبادة: تصور العبدية والعبودية، مع الاعتراف بعلو شأن المعبود وشكره والامتنان على آلائه في أداء شعائر العبادة له، مع الخضوع للمعبود بحسه وقلبه.

استعمال كلمة العبادة في القرآن:

١- جاء استعمال كلمة العبادة في القرآن بمعنى العبودية والإطاعة في قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء: ٢٢]. قال الطبري في تفسيره ١٩ / ٣٣ أي اتخذتهم عبيدًا لك.

ويقول تعالى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ٤٥ – ٤٧]. قال الإمام الطبري في التفسير ١٨/ ١٩ يعنى مطيعون لهم متذللون يأتمرون لأمرهم ويدينون لهم.

٢- وجاء استعمالها أيضا بمعنى طاعة الطاغوت والتعبد له، سواء كان الطاغوت المعبود إنسانًا أو شيطانًا أو وثنًا، أو كائنًا من كان وما كان من شيء (تفسير الطبري ٣ / ١٣) يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل: ٣٦].

«ويدخل في معنى الطاغوت في اصطلاح القرآن، كل سلطة وكل إمامة أو قيادة تبغي على الله وتتمرد، ثم تنفذ حكمًا في أرضه، وتحمل عباده على طاعته بالإكراه أو بالإغراء. ومن يستسلم يكون ذلك منه بدون شك عبادة للطاغوت».

٣- العبادة بمعنى الطاعة للشيطان في قوله تعالى ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يس: ٦٠] والمعنى ليس تأليههم للشيطان في الحياة الدنيا، لأن أحدًا لا يفعل ذلك، بل المقصود من الآية الكريمة إطاعتهم لأمره وإتباعهم لحكمه.

٤- وتأتى العبادة بمعنى الطاعة للأئمة والهداة الذين يضلون العامة فيطيعونهم ويقلدونهم تقليدًا أعمى، في قوله تعالى: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴾ [الصافات: ٢٧ – ٣٠].

٥- وقد يكون معنى العبادة: اتخاذ العلماء والأحبار أربابًا من دون الله،

والإيمان بأنهم مالكو الأمر والنهى في قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

العبادة بمعنى التأله:

وفيها أمران:

أولهما: أن يركع أمام مرقد شيخ أو يقبل ضريحه ويطوف به، يأتي بذلك شفاعة وزلفى مع أنه لا يعتقد فيه إلهًا أعلى مستقلًا بذاته، بل يعتقد فيه شريكًا للإله الأعلى، ووسيطًا له في تدبير أمر هذا العالم.

والثاني: أن يعده غوثا له، «يدعوه في حاجته، ويستغيث به في ضره وآفته، ويعوذ به عند نزول الأهوال، ونقص الأنفس والأموال. يقول تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦] فالمراد بالعبادة ههنا الدعاء والاستغاثة.

إذن فالعبادة لغير الله قد تكون بمعنى العبودية والإطاعة والمراد بالمعبود فيها إما الشيطان، وإما الطاغوت من طواغيت الناس، وقد تكون بمعنى الطاعة فحسب، أو بمعنى التأله فحسب.

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٤]. وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٧].

ويقيم القرآن الكريم البرهان على كون جميع المعبودات من دون الله تعالى، أعجز من أن ينفعوا العباد أو يضروهم، ولهذا فإن القرآن يدعو جميع الإنس والجن

لعبادة الله تعالى. يقول تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ٢٦]. وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [المائدة: ٧٦].

والمعنى الكامل للعبادة هو التأله، وحيثما ذكرت كلمة العبادة في القرآن، فإن المراد بها عبادة الله تعالى بمعانيها الثلاثة: العبودية والإطاعة والتأله» يقول تعالى: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٤٠]. ويقول تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الأنعام: ١٠٢]. إن القرآن يعرض دعوته بأكملها، ولذلك كانت دعوة القرآن إلى أن تكون العبادة بأكملها أي بمعنى: العبودية والإطاعة والتأله لله تعالى.

٤ ـ الدين:

١ - تستعمل كلمة الدين في اللغة بمعنى القهر والسلطة والحكم والأمر، والإكراه على الطاعة، واستخدام القوة القاهرة، وجعل الفرد عبدًا مطيعًا.

٢ - وقد تكون بمعنى: الإطاعة والعبودية، والتسخير في خدمة أحد.

٣ - وتأتى بمعنى الشرع والقانون، والطريقة والمذهب، والملة.

٤ - وبمعنى الجزاء والمكافأة، والقضاء، والحساب.

٥ - والديان بمعنى القاضي والحاكم.

استعمال كلمة الدين في القرآن:

يأتي استعمالها في القرآن بمعانٍ أربعة أساسية - قد يتفرع عنها معانٍ - هي:

١- القهر والغلبة من ذي سلطة عليا.

٢- الإطاعة والتعبد والعبودية، من قبل خاضع لذي السلطة.

٣- الحدود والقوانين والطريقة التي تتبع.

٤- المحاسبة والقضاء والجزاء والعقاب.

ولقد أطلق القرآن الكريم كلمة (الدين) بمعانيها الأول والثاني والثالث والرابع كل معنى بمفرده. ولكن غلب الاستعمال القرآني لكلمة (الدين) وأراد بها النظام الكامل بمعانيه الأربعة في آن واحد».

الدين بالمعنى الأول والثاني في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر: ٦٤، ٦٥]. وقوله تعالى: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٢].

فقد وردت كلمة (الدين) بمعنى السلطة العليا التي يجب الإذعان لها وقبول إطاعتها، والمراد بأن يكون الدين خالصا لله، ألا يسلم المرء لأحد من دون الله بالحاكمية والحكم والأمر. ويخلص العبادة لله، فلا تعبد لغير الله تعالى.

الدين بالمعنى الثالث:

في قوله تعالى: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٤٠] (الدين) ههنا هو الشرع والنظام الفكري والعملي الذي يتقيد به الإنسان ويلتزم به.

الدين بالمعنى الرابع:

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ [الذاريات: ٥، ٦]. ويقول تعالى: ﴿ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ [الانفطار:١٨،١٩].

الدين: المصطلح الجامع الشامل:

ورد ذكر (الدين) في القرآن الكريم معنى جامعًا شاملًا، يراد به نظام للحياة، يذعن فيه المرء لسلطة عليا، ويقبل طاعته وإتباعه، ويلتزم في حياته بما حد من حدود وقواعد وتعاليم، ويرجو في طاعته العزة والترقي في الدرجات وحسن الجزاء، ويخشى في عصيانه الذلة والخزي، وسوء العاقبة».

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ [غافر: ٢٦].

والآية بينت معنى الدين، وأضافت إليه معنى الدولة، ونظام المدنية، فإن فرعون كان يخشى من ضياع دينه، وزوال دولته، ونظام الحياة القائم على حاكمية الفراعنة. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩].

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٣٩].

المراد بالدين في هذه الآيات هو نظام الحياة الكامل الشامل، لنواصيها

الاعتقادية، والفكرية، والخلقية، والعملية. ولقد أرسل محمد ﷺ بالدين الحق الإسلام، ذلك النظام الصحيح للحياة الإنسانية، وغايته أن يظهره الله تعالى على سائر النظم الحياتية، حتى يخلص لله تعالى الإطاعة والعبودية. قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [سورة النصر].

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه ﷺ - ثم للمسلمين من بعده - يقول فيه عز من قائل لقد انتصر الإسلام الدين الحق، النظام الكامل الشامل للعقيدة والفكر، والخلق والتعليم والمدنية، والاجتماع والسياسة والاقتصاد، وكل مجالات التنمية - فلا تظن يا محمد أن ذلك الذي تم على يديك من كسبك ومن سعيك، فيدركك العجب به، وإنما الذي أنجزه ومنّ به عليك هو الله تعالى المنزه عن النقص والعيب، والمنفرد بصفة الكمال. فسبح بحمده واشكره على توفيقه إياك في تلك المهمة العظيمة. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتب أبو الأعلى المودودي هذا الكتاب في سنة ١٣٦٠هـ - ١٩٤١م وكان مسلمو الهند حينذاك يتطلعون إلى الاستقلال بدولة إسلامية تجمعهم (وهي الدولة التي عرفت فيما بعد باكستان) فكان كتاب المودودي هذا بيانا لمعاني المصطلحات الأربعة كما جاءت في القرآن، في مواجهة الهندوكية ديانة الأغلبية الهندية، وديانات أخرى كديانة السيخ وغير ذلك من ديانات تؤمن بآلهة غير الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي يتأله له المسلمون.

*****